سوريا وعقيدة الحيادية العربية: من الاستقلال إلى التبعية

رامي جينات

ايستبورن: طباعة سوسكس أكاديمي، ٢٠١٠، عدد الصفحات: ٣١٠.

ISBN 9781845193966

تتابع دراسة رامي جينات تطور السياسة السورية الخارجية الحيادية خلال السنوات الأولى من الاستقلال حتى سقوط الاتحاد السوفيتي، فبالنظر إلى تطور السياسة السورية ضمن إطار عالمي يتضمن المواقف الدبلوماسية لما يسمي بالدول الناشئة في العالم الثالث - خاصة الهند، ومصر، ويوغوسلافيا، وإندونيسيا- يوضح جينات المواجهة المتعددة الجوانب من الحيادية التي -في الوقت ذاته- وحدت وقسمت الدول التي تسعى إلى الحصول على "طريق ثالث" بديل في النضال الأيديولوجي للحرب الباردة.

وبالاعتماد على منهجية عالم السياسية المهتم بتاريخ الأفكار، يتابع جينات العلاقة التأسيسية المتبادلة بين العروبة وسياسات النخبة، وتطور المواقف الجيوسياسية الوطنية، مع التشديد والتركيز على السبل التي حددت فيها السياسة والكتلة العربية نتائج هذه المواقف، وتتحدى استنتاجات جينات كتابات الصحافي الرائد باتريك سيل (١٩٦٥)، وفايز الصايغ (١٩٦٤) وغيرهم؛ في اثنتين من النقاط الرئيسة.

أولا: في حين أن العديد من علماء ومفكري الشرق الأوسط المعاصرين يوافقون على أن الأيديولوجية العربية الحيادية دخلت مرحلة النضج خلال السنوات الأولى من حكم عبد الناصر في مصر، كتوازن مضاد للهيمنة الغربية والسوفيتية؛ يقدم جينات أدلة مقنعة على أن جذور الحيادية زرعت في التربة العربية بالفعل في أوائل الأربعينيات من القرن الماضي، وعلى وجه التحديد من قبل المفكرين العرب - وبخاصة من قادة حزب البعث السوري الأوائل- ففترة الانتداب الفرنسي قد "هيأت الظروف الأيديولوجية... لظهور الحيادية"، وذلك قبل الصياغة الرسمية وقبل تنفيذ هذه السياسة.

وفي حين أن التفسيرات السابقة من الحيادية تركز على السياسة العربية القومية التي حدد فيها القادة العرب وضع دولهم في إطار استقطاب الحرب الباردة؛ يوضح جينات أن سياسة التكتلات التي تضم دول عدم الانحياز غير العربية، مثل الهند ويوغسلافيا والصين لعبت دورا لا يقل أهمية في تشكيل نوع الحيادية للأمة في ذلك الوقت، فالحيادية تطورت في سوريا على اعتبارها انعكاسا لما يسميه جينات "الاعتبارات النفعية" للأمة، خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عندما بحث القادة السوريون عن الشرعية في الساحة الدولية، وأقاموا شراكات وطنية على المدى القصير مع عدد من الدول الناشئة، وبصورة أعمق يبين جينات كيف أن الحيادية تطورت بين دول عدم الانحياز على اعتبارها انعكاسا "للأوضاع المحلية والتراث السياسي والتقاليد، والاحتياجات الخاصة" لكل دولة.

وبالنظر إلى الديناميكية بين الأفكار والسياسات؛ يناقش جينات الدرجة التي وصلت إليها مواقف الحيادية باعتبارها أيديولوجية راسخة، وباعتماده على أسلوب السرد، يترك للقارئ استنتاج أن السياسة الخارجية السورية عكست الماضي.

يصور الفصلان الأول والثاني السنوات الأول من الاستقلال السوري، حيث تودد الزعماء الوطنيون إلى كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وفي الوقت نفسه وضعوا استراتيجيات لتعزيز سلطتهم في الداخل، أما الفصل الثالث فيستكشف مكانة سوريا وسط كوكبة من دول عدم الانحياز الناشئة في الشرق الأوسط، والتقارب الأيديولوجي مع القادة المحايدين في الهند ومصر.

أما الفصلان الرابع والخامس فيوضحان صعود الفصائل الأيديولوجية المعقدة داخل سوريا، وبطء الخطاب السياسي الصادر عن القادة المستقلين والبعثيين، والشيوعيين، ويقدم جينات أدلة كثيرة تبين أنه في الفترة ما بين عامي ١٩٤٦ و١٩٦١ "تميزت السياسة السورية الخارجية بالبحث المستمر عن حلفاء أجانب"، مما أدى إلى تغير المواقف تجاه الدول المجاورة بشكل مستمر، وعلاوة على ذلك فإنه على عكس غالبية دول عدم الانحياز المعاصرة؛ طغت النزاعات الإقليمية بين الاتحاد السوفيتي ومصر على نضال سوريا بين القوتين العظميين، ودخلت سوريا في صراع على السلطة الإقليمية، وبلغت الأمور ذروتها باتحاد سوريا مع مصر تحت اسم الجمهورية العربية المتحدة في عام ١٩٥٨.

أما الفصول النهائية والخاتمة فهي فصول تصف فتور العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وبين الجمهورية العربية المتحدة بعد عام ١٩٦٠، وتوضح كيف أن رغبة عبد الناصر في القضاء على الشيوعية الداخلية وفرض الهيمنة على العالم العربي أدى إلى زوال الجمهورية التي لم تدم طويلا، وبوفاة عبد الناصر وتراجع النفوذ السوفيتي في الشئون المصرية؛ أصبحت سوريا تعتمد بشكل كبير على المساعدات السوفيتية، وهو ما حول سوريا إلى "دولة تابعة للاتحاد السوفيتي في العديد من الشئون الدولية".

إن هدف جينات الذي يرمي إلى وضع التاريخ السياسي السوري في سياق حواري أشمل بين دول عدم الانحياز هو تطور مرحب به في الأدب، ومن أجل صياغة هذا الإطار السردي اعتمد جينات اعتمادا كبيرا على تصنيفات معقدة من مختلف أنواع الحيادية التي اتسمت بها السياسة السورية الخارجية، والتي قد تمثل كلا من الجانب القوي والضعيف في العمل.

من ناحية ما؛ نجد أنه تم بحث التاريخ السياسي العام بين عامي ١٩٤٥ و١٩٦٢، وتم تدعيم وجهة نظر الكاتب بشأن ظهور النزعات الحيادية في وقت مبكر بالأدلة الدامغة (مراسلات دبلوماسية، وخطب، وسجلات العامة) مستمدة من الأرشيفات (دور المحفوظات) في بريطانيا والولايات المتحدة وإسرائيل وبولندا والهند، ومن ناحية أخرى، فإن مناقشة الكاتب للفروق الطفيفة التي تميز الأنواع الأحد عشر من الحيادية في بعض الأحيان؛ هيمنت على النص على حساب الأحداث المهمة، وبمعنى آخر فإن جينات فشل في التركيز بدرجة كافية، على ذكر العلاقة بين السياسة والفكر والأحداث على أرض الواقع، فمن الواضح أن الأيدولوجية هي المحور الرئيس لهذا الكتاب، فالاعتماد على النظام النظري من شأنه أن يعيق العملية التاريخية.

وعامة فهذه الانتقادات لا تقلل من شأن هذا العمل، فكتاب رامي جينات هو إضافة كبيرة للأدب في تلك الفترة، ويستحق القراءة، كما أن أي دارس للتاريخ السوري وسياسات الحرب الباردة في الشرق الأوسط بحاجة إلى قراءته.

آدم جورن
جامعة كليرمونت للدراسات العليا